الباب الثانى

الجندية

واجباتها وحقوقها

الجندية هى مجموعة الرجال القادرين غير المعذورين فى الدولة الإسلامية سواء كانوا عسكريين أم مدنيين ، إذ كل رجل فى الإسلام ممن ذكرت جندى تحت السلاح ، يحمل سلاحه إذا اقتضى الأمر ، ويخوض المعارك إذا جد الجد .

فإذا كان من الرجال المعذورين فإنه يؤدى واجبه نحو دينه وأمته بانتظامه فى عمله الذى يقوم به ، فالتاجر فى متجره ، والصانع فى مصنعه ، والزارع فى مزرعته والموظف فى مكتبه ، وكل هؤلاء وأولئك جنود .

ولا شك أن كل واحد منهم على ثغرة من ثغرات الإسلام ، فهو يحافظ عليها ، ويدافع عنها حتى لا تؤتى أمة الإسلام من قبله .

كل رجل فى الأمة الإسلامية جندى على أهبة الاستعداد ، سلاحه تحت رأسه ، وروحه على كفه ، وأمره فى يد قيادته ، إذا نادى منادى الجهاد ، يا خيل الله اركبى لم يتخلف منهم أحد ، يترك الرجل تجارته فعند الله تجارة لن تبور ، ويودع أهله وعشيرته وله فى الجنة زوجات من الحور العين ، ويترك كذلك مزرعته ومصنعه ومكتبه وله عند الله خير العوض .

وضرب الجنود المسلمون أروع المثل فى تاريخ البشرية بمالا تعرف له الدنيا نظيرا من قبل ، سواء كان ذلك فى الشجاعة والصبر ، أم فى البذل والإيثار ، أم فى التضحية بالنفوس والأموال ، وكانت طاعتهم لقيادتهم ، وولاؤهم لمبادئهم ، وترفعهم عن محقرات الأمور وسفاسفها مما جعل لهم فى تاريخ الجندية شخصية متميزة إذا ذكرت الجندية أو تحدث عنها المتحدثون .

شهد بذلك العدو قبل الصديق ، ولم ينكره أحد من المؤرخين المحققين ، حتىٰ أصبح الجندى المسلم غرة فى تاريخ الإنسانية الطويل ، لقد رباهم الإسلام على عينه و اصطنعهم لحمل رسالته ، فكانوا أبر الأبناء بوعودهم ، وأوفى من عاهد بعهودهم ، ولقد ضبط الإسلام سلوكهم بآدابه ، وهذب غرائزهم بمبادئه وتعاليمه فانتزع من نفوسهم حب الغارة لمجرد السلب والنهب ، وغرس فيها حب الجهاد فى سبيل الله ، واستل من قلوبهم حمية الجاهلية وعنجهيتها ، وأحل محلها أخوة الإسلام وتواضعه ، وبغض إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وحبب إليهم التقوى والفضيلة والإيمان ، فأصبحوا بذلك جديرين بأن يكونوا جند الله ، فاستحقوا بذلك موعود الله : ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[1] .

والإسلام لم يسخر هؤلاء الجنود لمآرب ذاتية ، ولم يستغل مشاعرهم الخيرة لمصالح شخصية ، بل رغبهم فى الجهاد لإعلاء كلمة الله ، ونشر دينه ، وهداية البشرية ، وحثهم على مقاتلة عدو الله وعدوهم للقضاء على الظلم وإقامة العدل وتحقيق أسمى المبادىء التى عرفتها الإنسانية .

الجندية فى الإسلام شرف رفيع لا يرقى إليه إلا الشجاع المغوار ، لأن الإسلام أمر بالثبات وحرم الفرار يوم الزحف ، وجعله من الكبائر ، قال الله – تبارك وتعالى – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾[3].

ومن أجل هذا العمل العظيم الذى يقوم به الجنود فى الإسلام ، ومن أجل هذا الجهد الضخم الذى لا يستطيعه إلا المؤمنون أعظم الله – تعالى – أجر هؤلاء الجنود ، ولم يحرمهم جزاء صنيعهم فى الدنيا ، وضمن لهم الأجر العظيم فى

---

(١) سورة الصافات : الآية ١٧٣ .
(٢) سورة الأنفال : الآية ٤٥ .
(٣) سورة الأنفال : الآية ١٥ – ١٦ .

الآخرة ، فأباح لهم الأسلاب والغنائم فى الدنيا ، وأعد لهم فى الآخرة جنات النعيم ، قال ﷺ : « تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهادا فى سبيلى ، وإيمانا بى ، وتصديقا برسلى ، فهو على ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر وغنيمة »[1] .

واجبات الجنود

يعتبر الإسلام من أوائل النظم التى جعلت للجنود حقوقا فى مقابل الواجبات التى كلفهم بها ، وذلك لأن الإسلام يقدر الناس أقدارهم ، ولا يغمطهم حقوقهم فكل واجب يقابله حق ، نعم إن الناس جميعا عبيد الله – عز وجل – وليس للعبد لدى سيده حقوق إلا ما تفضل به السيد عليه ، والله – تبارك وتعالى – هو المنعم المتفضل ، وقد اقتضت رحمته بعباده أن يعطيهم الأجر مقابل ما يقومون به من الأعمال فضلا من الله ونعمة ، ووعدهم بذلك والله لا يخلف الميعاد .

وواجبات الجنود فى الإسلام كثيرة وعظيمة بقدر ما يقومون به من الأعمال العظام ، ونحن مجملو هذه الواجبات فيما يأتى :

(١) رواه مسلم ــ الإمارة ــ فضيلة الجهاد والخروج فى سبيل الله تعالى . والكلمات (جهادا ، وإيمانا وتصديقا) منصوبة على أنها مفعول له وتقديره لا يخرجه المخرج أو يحركه المحرك إلا للجهاد والإيمان والتصديق . النووى على مسلم (الناشر)

obeikandl.com

١ - الولاء :

الولاء هو الحب والتناصر والتحالف ، وهو بهذا المعنى من أوجب واجبات الجنود لقيادتهم ومبادئهم ، لأن الجندية الصحيحة لا تتحقق إلا بالحب المتبادل بين الجنود والقيادة ، والقيادة المخلصة لا توجد إلا بالتناصر والتحالف بينها وبين جنودها .

ومن المعلوم فى الإسلام أن المسلم لا يمنح ولاءه إلا لأخيه المسلم جنديا كان أم قائدا ، ولا يجوز له مطلقا أن يوالى غير المسلمين مهما كانت صلتهم به ، آباء كانوا أم إخوانا أم أزواجا أم عشيرة ، قال - تعالى - : ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ﴾[1] .

إن الله - تبارك وتعالى - قد ربط بين قلوب المؤمنين برابطة الإيمان فأغناهم به عن كل رابطة ، ذلك لأن رابطة الإيمان رابطة روحية علوية ، تستمد قوتها من الله - عز وجل - وتأخذ سموها ورفعتها ودوامها من ديمومة الحق الذى يرفدها دائما بالدوافع التى تزيدها مع مرور الأزمان قوة وسموا واستمراراً .

وما عدا رابطة الإيمان فإنها روابط مادية أرضية تزول بزوال موجباتها فرابطة الأبوة والبنوة ، ورابطة الأخوة والزوجية ، ورابطة العشيرة والقرابة ، كلها لا تزن عند الله شيئا متى ما خلت وتجردت من رابطة الإيمان .

---

(١) سورة المجادلة : الآية ٢٢ .

لهذا لم يعترف القرآن الكريم برابطة البنوة التى بين نوح – عليه السلام – وبين ابنه الذى كفر ولم يركب معه الفلك ، وذلك حين يأتى الطوفان مخيفا هائلا ويزعج نوح من أجل ولده المحروم من رحمة الله لعصيانه وتمرده .

يقول نوح – عليه السلام – : ﴿ رب إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق ﴾ فيرد الله – عز وجل – دعوى نوح بقوله – تعالى – : ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾[1] إنها رابطة لحم ودم ولكنها خالية تماما من الإيمان لهذا لم يعترف بها القرآن .

وكما رفض رابطة البنوة السابقة رفض كذلك رابطة الأبوة بين إبراهيم – عليه السلام – وبين أبيه آزر ، وذلك حين يعرض القرآن الحوار الذى دار بين إبراهيم و أبيه ، والذى ينتهى بقطع الرابطة والعلاقة التى بينهما ، حيث يقول إبراهيم – عليه السلام – : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا ﴾[2] .

وهكذا ترفض رابطة الأخوة بين مصعب بن عمير – رضى الله عنه – وبين أخيه عزيز فقد أسر عزيز فى غزوة بدر ، ورآه مصعب – رضى الله عنه – أسيرا فى يد أحد المسلمين فقال مصعب لمن أسر أخاه : « اشدد يدك عليه ، فإن أمه ذات مال ، وعسى أن تفتديه منك بمال كثير » .

فيقول عزيز وقد سمع مقالة أخيه : « أهذه وصاتك بأخيك يا مصعب ؟ » فيرد مصعب عليه أخوته ، ويقول : « لست أخى ، بل هو أخى دونك »[3] .

ويأتى دور رابطة الزوجية الخالية من رابطة الإيمان فترفض كما رفضت سوابقها ورابطة الزوجية من أوثق الروابط وأمتنها ، ولكنها حين لا تبنى على أساس من الإيمان فإنها لا تغنى عن صاحبها شيئا .

---

(١) سورة هود : الآية ٤٥ – ٤٦ .

(٢) سورة مريم : الآية ٤٨ .

(٣) سيرة ابن هشام : ٦٨٦/٢ طبعة دار الفكر .

والقرآن الكريم يضرب لنا مثلا لذلك بزوجتى نوح ولوط - عليهما السلام - فإنهما خانتا زوجيهما ، وتمالأتا مع أعداء الله والرسالة فلم تغن عنهما رابطة الزوجية ولو كانت مع نبيين كريمين شيئا ، ولم تحل بينهما وبين الخلود فى النار ، قال - تعالى - : ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾(١) .

ولم تكن رابطة القرابة والعشيرة بأحسن حالا من غيرها من الروابط السالفة لقد أبى الإسلام الاعتراف بها لخلوها من الإيمان ولو كانت قرابة من الدرجة الأولى فهذا أبو لهب - عبد العزى بن عبد المطلب - عم رسول الله ﷺ ترد عليه قرابته ، ولم تغن عنه شيئا ، ونزلت فى حقه سورة من القرآن الكريم تسفه رأيه وتنذره بالويل والثبور ، وتتوعده بألوان من العذاب تشيب لهولها الولدان ، وستظل السورة تتلى على ألسنة المؤمنين كعنوان لرفض أقوى الروابط المادية التى لا تقوم على أساس من الحق والإيمان ، وسيظل يرددها المؤمنون إعلانا منهم لهذا المبدأ القويم الذى قرره القرآن الكريم ، يقول الله - تبارك وتعالى - : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد ﴾(٢) .

والقرآن الكريم يؤكد هذا المعنى فى آيات متعددة بما لا يدع فرصة لأى نوع من الموالاة يكون بين المؤمنين وغير المؤمنين مطلقا ، فلا ولاء بين المؤمنين وبين اليهود والنصارى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾(٣) .

ولا ولاء بين المؤمنين والمنافقين ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله ﴾(٤) .

---

(١) سورة التحريم : الآية ١٠ .
(٢) سورة المسد .
(٣) سورة المائدة : الآية ٥١ .
(٤) سورة النساء : الآية ٨٩ .

ولا ولاء بين المؤمنين وأعداء الله وأعداء المؤمنين مطلقا ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾[1] .

ولا ولاء بين المؤمنين وبين المؤمنين الذين لم ينضموا للجماعة المؤمنة المكافحة التى تتصدى لأعداء الإسلام ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ﴾[2] .

ثم تأتى آية التوبة فتفصل فى المسألة دون محاباة أو مجاملة فتنهى عن الموالاة بين الأبناء المؤمنين وبين آبائهم وإخوانهم . يقول الله – تعالى – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾[3] .

وتعقب عليها الآية التى تليها فتحسم الأمر حسما لا يقبل التردد ولا القيل والقال ، فيضع الله – عز وجل – كل أنواع الروابط التى تعارف عليها الناس – الأبوة والبنوة والأخوة والزوجية والعشيرة والقبيلة – ويضاف إليها كل متاع الدنيا وزخارفها : الأموال التى نشقى فى تحصيلها ، والتجارة التى نحرص على رواجها ، والقصور التى نتباهى بتشييدها ، يضع ذلك كله فى كفة ، ويضع حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله فى الكفة الثانية ، ثم يهدد الذين ضلت أحلامهم فآثروا الأولى على الآخرة ، وفضلوا الفانية على الباقية ، فيقول – جل جلاله – : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[4] .

ونحن نرى من هذا العرض لآيات القرآن الكريم أن الإسلام لم يعترف بتلك

---

(١) سورة الممتحنة : الآية ١ .
(٢) سورة الأنفال : الآية ٧٢ .
(٣) سورة التوبة : الآية ٢٣ .
(٤) سورة التوبة : الآية ٢٤ .

الروابط كلها مادامت متجردة عن الرابطة الحقيقية وهى رابطة الإيمان والعقيدة وهذه هى الرابطة الحقيقية التى تشد المجتمع بعضه إلى بعض ، وتربط بين الناس ولو لم يكن بينهم صهر ولا نسب ، وهى التى يكون على أساسها الولاء والمحبة والتناصر يقول – تعالى – : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾(١) .

ونلاحظ أن الرسول ﷺ وهو الذى قطعت السورة الكريمة ما بينه وبين عمه من الولاء والمحبة والقرابة يقول فى سلمان الفارسى : « سلمان منا أهل البيت »(٢) .

إن الإسلام الذى لم يعترف بتلك الروابط لا يسمح بإقامة علاقات بين المسلمين وغيرهم مبنية على قواعد الولاء والمحبة والمودة ، لأن ولاء المؤمنين لا يكون إلا للمؤمنين ، وحب المسلمين لا يكون إلا لإخوانهم المسلمين قال – تعالى – : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ﴾(٣) .

إن موالاة غير المؤمنين مغامرة خطيرة ، قد تؤدى إلى الخروج من حظيرة الإيمان ، لأن الولاء هو الحب والمناصرة ، وإذا حصل هذا بين المؤمنين وأعداء الدين ، فإنه يكون حبا للباطل ومناصرة له ، وذلك هو الكفر الصريح ، ولهذا قال الله – تبارك وتعالى – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ﴾(٤) وقال – جل شأنه – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾(٤) .

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٠ .
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير .
(٣) سورة التوبة : الآية ٧١ .
(٤) سورة المائدة : الآيتان ٥٧ ، ٥١ .

العقيدة أساس الولاء :

العقيدة هى الأساس الذى يبنى عليه الولاء فى الإسلام لأن الأصل أن المسلم لا يوالى إلا المسلم حيث تجمع بينهما عقيدة التوحيد ، فإذا اختلفت العقيدة فلا موالاة ولا تناصر .

وكما أن غير المسلمين يوالى بعضهم بعضا مهما اختلفت نحلهم وعقائدهم قال – تعالى – : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ﴾(١) فكذلك ينبغى أن يكون المسلمون فالموالاة حق للمسلم على المسلم .

فاليهود والنصارى يوالى بعضهم بعضا ، بل ويوالون الملحدين والمنافقين ، ولا يتورعون عن محالفتهم ومناصرتهم ، والواقع التاريخى يصدق ذلك كله مادام العدو هو الإسلام .

إن المفاصلة فى هذا الأمر يجب أن تكون حاسمة صارمة ، تقطع حالة التردد وتقضى على ما فى النفوس من الحيرة ، فلا تحالف بين المؤمنين وغيرهم ولا تناصر ولا مودة ، وإنما هو استعلاء الإيمان على الكفر بأسمائه المختلفة .

وينبغى أن نعلم أن التسامح فى معاملة غير المسلمين ليس من الموالاة ، فنحن لم ننه عن ذلك ، بل يجوز لنا برهم والإقساط فى معاملتهم ماداموا غير محاربين يقول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ﴾(٢) .

قد تكون هذه الآية سببا فى الخلط بين التسامح والولاء ، وقد يكون هذا الخلط ناشئا عن مغالطة وسوء قصد ، والحق الذى يجب أن يكون واضحا فى أذهان الناس أن التسامح إنما يكون بين الأفراد فى المعاملات التى تكون بينهم ، أما الولاء فإنه يكون بتحقيق التحالف والتناصر ، والفرق واضح بين الأمرين ، يلمسه أولئك الذين يعيشون بوجدانهم وقلوبهم للإسلام ، و لا يحسه الذين

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٧٢ .

(٢) سورة الممتحنة : الآية ٨

انتسبوا إلى الإسلام ، ولم يتجردوا له ، وسموا مسلمين وما هم بمسلمين .

فالتسامح إذن غير الموالاة ، ولهذا أجاز الله أن نتسامح مع غير المسلمين فى التعامل لأن ذلك من حسن الخلق الذى يدعو إليه الإسلام ، وحرم الموالاة واعتبرها مع غير المسلمين نوعا من الردة يجب أن يتنزه عنه المسلمون ، فإنه – سبحانه وتعالى – بعد أن بين أن من يوالى اليهود والنصارى يكون منهم قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾(١) .

ثم عقب على هذه الآية الكريمة بقوله – تعالى – : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾(٢) .

وهكذا ينحصر ولاء المؤمنين ، فلا يكون إلا لله ولرسوله وللمؤمنين ، وبهذا لا يكون ولاء مطلقا بين المؤمنين وغيرهم ، بل لا يجوز للمسلمين أن يحدثوا هذا النوع من الولاء مهما كانت الأسباب ، لأن النصر متوقف عليه ، قال – تعالى – : ﴿ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾(٣) .

وتلك نتيجة حتمية لهذه الموالاة ، فإن الله – عز وجل – لا يسلم أولياءه ، ولا يمكن لأعدائه ، وإذا حدث هذا فإنما يكون بسبب تقصير المؤمنين وإعراضهم عن دين الله .

ومن هنا نتبين حقيقة ما يشيعه المتخاذلون من أن موالاة غير المؤمنين للتغلب على عدو مشترك جائز ، فهذا الكلام وهم محض ، والأحداث التاريخية تشهد بخلاف ذلك ، فغير المسلمين لا يتحالفون مع المسلمين إلا مرغمين ، وإذا أتيحت لهم فرصة الخيانة ونقض العهد سارعوا إليها ، وأما مع بعضهم فإنهم

---

(١) سورة المائدة : الآية ٥٣ .
(٢) سورة المائدة : الآية ٥٥ .
(٣) سورة المائدة : الآية ٥٦ .

يتحالفون ويتناصرون وقد ثبت تحالف المنافقين مع اليهود ، وتحالف المشركين مع اليهود كذلك ضد الإسلام والقرآن الكريم يقرر هذا بوضوح فى قوله – تعالى – : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾[1] .

عدم الموالاة لا يستلزم الإكراه :

ولن يكون عدم الولاء مستلزما لإكراه غير المسلمين على الدخول فى الإسلام ، لأن الله – تبارك وتعالى – يقول : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾[2] ، وذلك لأن الإكراه لا يوصل الإيمان إلى القلب ، ولا يثبت العقيدة فى النفس ، بل يجعل الإيمان كلمات تتردد على الألسنة ، ولا يتجاوز بالعقيدة حد الحناجر ، وهذا الإيمان وتلك العقيدة لا يعترف بهما الإسلام فالإسلام يطالب الناس بالإيمان عن اقتناع ، ولا يقبل العقيدة إلا أن تكون قائمة على حجة وبرهان .

فمتى كان الإيمان بغير اقتناع ، والعقيدة خالية من الحجة والبرهان يكون ذلك خداعا لا يقره الإسلام ، بل هو بصراحة حقيقة النفاق التى هى أخبث أنواع الكفر ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾[3] .

مواقف رائعة :

فهم المسلمون أن ولاءهم لا يكون إلا لقيادتهم ، وإخلاصهم لا يكون إلا لعقيدتهم ، وجهادهم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله ، فحققوا ذلك كله فى أنفسهم ، وطبقوه على حياتهم ، فمحضوا ولاءهم للقيادة ، وقطعوا علائقهم بكل من يخالفهم فى العقيدة ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١١٩ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .
(٣) سورة البقرة : الآيتان ٩ ، ١٠ .

وتاريخ المسلمين حافل بالمواقف الرائعة التى تدل على فهمهم العميق لمعنى الولاء الذى لا يجوز لهم أن يمنحوه إلا لقيادتهم وإخوانهم المسلمين .

ونكتفى هنا بأمثلة توضح هذا الفهم الدقيق الذى استقر فى عقول المسلمين ، وفى الأمثلة إيمان فياض ، وتجرد نادر ، وتمحيص للولاء لمن يستحق الولاء ، أحدها موقف رجل من أبيه ، والثانى موقف امرأة من أبيها وسنلاحظ أن موقف المرأة لا يقل روعة وإعجابا عن موقف الرجل ، مع التفاوت بينهما فى الدوافع والصفات وقوةالمواجهة . والثالث موقف رجل من أمه .

أما الرجل فهو عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول ، وقد سجل له التاريخ موقفا هو أروع ما سجل التاريخ لرجل تولى الله ورسوله والمؤمنين دون أبيه وعشيرته وقرابته ، وآثر إيمانه عل كل عزيز لديه .

ولنترك ابن إسحاق يروى لنا القصة على طبيعتها فيقول : « حدثنى عاصم بن عمر عن قتادة ، أن عبد الله أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك ، فإن كنت ولابد فاعلا فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار .

فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا »[1] .

وكان ابن أبى قد قال كلمته التى حكاها عنه القرآن الكريم ، تلك الكلمة التى تنم عن نفاق لئيم ، وخبث غميق ، قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، وبلغت تلك الكلمة رسول الله ﷺ كما بلغت عبد الله ابن عبد الله بن أبى ،فذهب إلى رسول الله ، وحدثه الحديث السالف ، ورد عليه الرسول بما يدل على عفوه عنه .

---

(١) سيرة ابن هشام : ١١١٦/٣ .

ولكن عبد الله – رضى الله عنه – لم يرض بهذا الموقف السلبى ، وأبى إلا أن يعلن على الملأ أن رسول الله ﷺ هو الأعز ، وأن أباه هو الأذل ولو كان سيدا فى قومه ، رئيسا على قبيلته ، ولو كان مرشحا لأن يكون ملكا على المدينة قبل دخول الإسلام إليها .

فلم يكد الناس يرجعون من غزوة بنى المصطلق التى حدث فيها ما حدث حتى وقف عبد الله على باب المدينة ، ومنع أباه من دخولها حتى يأذن له رسول الله ﷺ .

روى المحققون من أهل السير قالوا : « إن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبى على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه فلما جاء أبوه ، قال له ابنه : وراءك .

فقال : مالك ؟ ويلك .

فقال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الذليل .

فلما جاء الرسول ﷺ – وكان إنما يسير (ساقة) أى فى آخر الجيش لينظر المتخلف والضال والمحتاج إلى معونة – فشكا إليه عبد الله بن أبى ابنه .

فقال ابنه – عبد الله – : والله يا رسول لا يدخل حتى تأذن له ، فأذن له رسول الله ﷺ .

فقال عبد الله : أما إذا أذن لك رسول الله ، فجز الآن »[1] .

هذا موقف رجل مؤمن من أبيه المنافق ، وليس أبوه صعلوكا فأراد أن يتخلص منه ليكفى نفسه شر النفقه عليه ، ولا هو برعديد فخشى ان يلحقه عار جبنه ، ولا هو بوضيع فحاول أن يمحو حقارة نسبه ، بل كان أبوه

---

(١) تاريخ المدينة لابن شبة ص ٣٦٧ ، وابن كثير فى البداية والنهاية : ١٥٨/٤ ، وحدائق الأنوار لابن الربيع : ٥٦١/٢ .

ثريا فى قومه ، شجاعا فى عشيرته ، متوجا على أهل قريته ، فلماذا وقف عبد الله من أبيه هذا الموقف ؟

إن عبد الله رجل مؤمن علمه إيمانه أن يكون ولاؤه لدينه وقيادته فطبق هذا العلم فى حياته العملية ، وأراد بذلك أن يمحص ولاءه لقيادته ويعلن إخلاصه لعقيدته ، فوقف هذا الموقف الرائع الجرىء .

وأما المرأة فهى أم حبيبة بنت أبى سفيان زوجة رسول الله ﷺ و قد وقفت من أبيها – أبى سفيان – موقفا لا يقل روعة عن موقف عبد الله من أبيه ، بل يزيد عليه أنه من امرأة بارة رقيقة العواطف حانية القلب .

جاء أبوها إلى المدينة المنورة – وهو لا يزال على شركه – آملا أن يجير بين المسلمين والمشركين قبل غزوة الفتح ، وكان المشركون قد نقضوا العهد الذى بينهم وبين المسلمين فعزم الرسول ﷺ على غزوهم ، فلما بلغ المشركين ذلك أرسلوا أبا سفيان لعله يفلح فى تهدئة الخواطر ، وينجح فى إيقاف الحرب قبل أن تشتعل نارها .

قدم أبو سفيان إلى المدينة سفيرا عن قريش ، وكله أمل فى أن تنجح سفارته فيعود إلى قريش ، وقد تأكدت زعامته ، ويبدو أنه كان معتمدا على مركز ابنته عند رسول الله ﷺ فإن الرسول قد تزوجها وهى لا تزال فى الحبشة مهاجرة مع زوجها الذى تنصر وفارقها ومات هناك على الكفر .

وحاول أبو سفيان أن يجد من المسلمين من يساعده فى تحقيق هدفه وأداء مهمته ، ولكنه باء بالفشل والخسران ، وعندئذ توجه إلى بيت رسول الله ﷺ حيث تقيم ابنته أم حبيبة ، فدخل عليها وكان فراش رسول الله مبسوطا ، فأراد أبو سفيان أن يجلس عليه .

وهنا أسرعت أم حبيبة – رضى الله عنها – وجمعت الفراش فطوته . وحسب أبوها أنها إنما طوت الفراش لأنه غير لائق بمقام سيد قريش وستأتيه بما هو خير منه ، ولكنها لم تفعل ، فسألها أبوها ، أى بنية ، هل رغبت بأبيك عن الفراش أم رغبت بالفراش عن أبيك ؟

وفوجيء أبو سفيان بجواب حاسم لم يتوقعه حين قالت الزوجة الوفية المؤمنة : « إنه فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس فأحببت ألا تجلس عليه »[1] .

هكذا أجابت أم حبيبة – رضى الله عنها – أباها .

ومن أبوها ؟

إنه أبو سفيان سيد قريش ، وعلم من أعلامها ، إنه الرجل الذى تهابه الرجال لمكانته فيهم ، ولكن أم حبيبة لم تهبه كامرأة ، ولم تهبه كابنة له ، لأن حقيقة الإيمان حينما تستقر فى النفس ، ويطمئن بها القلب تطرد منه الخوف من غير الله – عز وجل – ولأن الإيمان الحق يأبى أن يكون حب المؤمن وولاؤه لغير قيادته وكان قلب أم حبيبة قد امتلأ بتلك الحقيقة فلم يعد فيه مكان لموالاة أحد غير المؤمنين .

إن أم حبيبة المرأة المؤمنة والابنة البارة استطاعت بقوة إيمانها أن تسيطر على عواطفها فلم تعد تتحرك نحو أقرب الناس إليها ، وتغلبت بقوة إرادتها على نزعتها البشرية فلم تقدم أباها ، وأخلصت حبها وولاءها لقيادتها .

ونحن نلاحظ أن أم حبيبة حينما طوت الفراش قالت : « إنه فراش رسول الله » ، ولم تقل فراش زوجى ، وذلك لأن ارتباط المرأة بأبيها أوثق من ارتباطها بزوجها ، فالعلاقة بين الأب وأبنائه لا تنفصم أبدا ، وأما علاقة المرأة بزوجها فإنها قابلة للانفصام .

وليس لكلمة السيدة أم حبيبة – رضى الله عنها – معنى إلا أن إخلاصها لقيادتها كان أعظم فى نفسها من إخلاصها لأبيها ، ولهذا قالت : « إنه فراش رسول الله » .

إن المرأة عادة تضعف أمام عواطفها ، وتفتر همتها إزاء وجيب قلبها المتأثر بنزعتها الأنثوية ، ولكن أم حبيبة قد استولى الإيمان على قلبها فاستطاعت كبت

---

(١) ابن هشام : ٤/١٢٣٧ .

عواطفها والتحكم فى نزعاتها والسيطرة على قلبا فأصبحت عواطفها خلف إيمانها ، وخفقات قلبها طوع عقيدتها ، وقد روضت نزعاتها البشرية حتى لا تتحرك إلا لتحقيق الغاية السامية التى من أجلها هبطت رسالة السماء على أهل الأرض .

هكذا كانت أم حبيبة – رضى الله عنها – أمام أبيها جاهرته بالعداء ، وأكنت لقيادتها خالص الولاء .

وهذا سعد بن أبى وقاص – رضى الله عنه – وكان من أبر الناس بأمه حمنة بنت أبى سفيان ، أسلم سعد مبكرا ، وهو فى ريعان شبابه ، فكان من السابقين الأولين ، ونقمت أمه منه دينه الجديد ، وبذلت أقصى ما يمكن أن يبذله الإنسان من جهد لترده إلى دين آبائه وأجداده ، ولكن سعدا لم يكن بالغر الذى تؤثر فيه أمثال تلك الحيل ، فقد شده الإيمان إلى جماعة المسلمين ، وارتبط قلبه بالدين الجديد ، فلم تؤثر فيه محاولاتها .

ورأت أم سعد أن تستغل بره بها ، وأن تستعمله سلاحا لعله يمكنها مما فشلت فيه حيلها ، فاستعطفته بحقها عليه ، وانتصر سعد على عاطفته ، وأصر على التمسك بدينه .

وهنا وعندما أعيت الحيل العجوز ، لجأت إلى التهديد والوعيد ، وأضربت عن الطعام والشراب ، وأخبرته بأنها ستظل هكذا حتى تموت جوعا ، فيعير ولدها سعد بموتها ، يقال له : يا قاتل أمه .

ووقف سعد أمام امتحان خطير ، فهو الآن بين أمرين لا حيلة له إلا أن يقبل أحدهما ، أيضحى بدينه ، ويرضى أمه حتى لا يعير بميتتها التى تستنكرها العادات العربية الموروثة ، أم يضحى بأمه ، ويعتصم بدينه ، وليكن ما يكون ؟

ولم تطل وقفة سعد أمام هذا الاختيار الرهيب ، وحسم الأمر فى سرعة لم تتصورها أمه التى كانت تعلق الآمال الكبار على بره بها وعطفه عليها ، والتى لم تشك قط فى أنه سيهن أمام تهديدها ، ويضعف تحت ضغط وعيدها ، واتخذ سعد – رضى الله عنه – قراره الذى أزهل أمه ، وأزهل كل من كان حولها حين

قال : « يا أماه ، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى ، فكلى إن شئت، وإن شئت فلا تأكلى »[1] .

وفوجئت الأم بهذا القرار الذى لم تتوقعه ، ويئست من عطف ولدها ، وعدم خشيته من أن يعير بموتها فعادت إلى ما كانت عليه وأكلت وشربت .

وهكذا آثر سعد عقيدته على أمه ، واستمسك بإيمانه ولم يهن أمام ضغطها ، ذلك لأن الإيمان قد قطع علاقته بكل ما حوله سوى الجماعة المسلمة ، فهى الحقيقة بحبه وتقديره ، وهى الجديرة بإخلاصه وولائه .

هذه نماذج لا تزال حية فى قلوبنا وإن طال عليها الزمن ، ولم تختف عن أبصارنا وإن وارى الثرى أصحابها ، وإن الكلمات التى أظهرت فيها ولاءها لقيادتها لتطرق أسماعنا عبر القرون الطويلة السحيقة التى مرت عليها ، فعبد الله يقول لأبيه : « والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل » وأم حبيبة تقول لأبيها : « هذا فراش رسول الله ، وأنت رجل مشرك نجس ، فأحببت ألا تجلس عليه » وسعد يقول لأمه : « يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى » .

هكذا يجب أن يكون المؤمن ، ولاؤه لقيادته مبنى على أساس عقيدته ، لا تضعفه عاطفة مهما قويت ، ولا توهنه قرابة مهما قربت ، ولا تصرفه عن خطته أبوة رحيمة ، ولا أمومة رؤومة ، ولا بنوة بارة كريمة .

---

(١) رواه الترمذى .